تقديم محمود تيمور

نموذج جديد من قصص قومي:

إدريس

(قصة مغربية بالفرنسية ـ للأستاذ علي الحمامي)

للأستاذ محمود تيمور

ثلاثة عناصر، متى توافرت لعمل فني مكنت له، وأبلغته ذروة الإجادة، فأسلست له أهواء النفوس

تلك العناصر التي أعنيها، هي:

قوة الإحساس، وصدق التعبير، وموهبة الأداء.

وقد اتسقت ثلاثتها في هذه القصة التي ألفها الأستاذ "علي الحمامي" في اللّغة الفرنسية، وسماها: "إدريس"، وصور بها الحياة المغربية وما يضطرم فيها من آلام وآمال ...

في تلك القصة تنبسط صحف من التاريخ، وتنصقل مرآة للحاضر، وتتجلّى أحوال سياسية واجتماعية قائمة، وتترسل روح من الوطنية تثير الأفئدة وتهز المشاعر. فالكتاب ـ بفضل ما حواه من ذلك كله ـ يعدّ نموذجا من القصص القومي، جديرا بالتقدير والإعجاب ...

ومما هو مسلّم به عند البصراء من نقاد الأدب أن الفن لا يجود ولا يؤتي جناه إلاّ إن تركت له حرية التحليق والانطلاق، لا نزعة تملى عليه، ولا مبدأ يتحكم فيه. ومن ثمّ كانت القصص التاريخية والسياسية والوطنية في المقام الثاني من القصص الفني، لأن كتابها مقيدة أقلامهم بما حدد لهم من أغراض، وما عين لهم من أهداف.

ولكن الأديب " الحمامي " في قصته القومية، ينجو من تبعة هذا النقد، ويسمو على تلك الملاحظة، وذلك لأنه لم يخضع قلمه لمنحى مسوق إليه، ولم يرد فنه على غرض دخيل عليه. وإنما أحس في قوة، وعبّر في صدق، وأدى قادرا على الأداء.

لقد عايش المؤلف أمته، وشهد ما تعانيه من كوارث، وما يعوق خطاها من أغلال ، وشعر بما يعتلج بين حناياها من منازع الحرية والعزة، وكان لذلك اثر في نفسه لم يلبث أن دفعه إلى التعبير فجرى قلمه يصور حياة قومه ويكشف عن آلامها وخوالج نفسها في إيحاء فني قويم.

وأنت تساير " إدريس " بطل هذه القصة، وهو يروي لك أحداث حياته، وما تعاقب عليها من أحوال، فإذا بك ـ وأنت مسترسل معه ـ تطالع الحياة المغربية في عهدها العتيد، فترى كيف صنعت سياسة الاستعمار بذلك الوطن المغلوب على أمره، وتعلم كيف يسام الخسف والعسف في جحيم تلك السياسة الغشوم، وكيف تتوق نفسه إلى عيش الحرية والكرامة، فهو يكافح ويجاهد ما وسعه من الكفاح والجهاد.

فقارئ هذه القصة لا يملك سكينته إزاء ما يمرّ به من صور تفضح له عن نفسية شعب أبي يتنزّى في الحديد والنار ، وتشهد بما يكمن في سريرة ذلك الشعب من فتوّة وحمية ، وما يغلي في عروقه من دماء أسلافه الذين كانوا في طليعة بناة الحضارة وسادة الأمم.

والقصة في جملتها مزاج طريف من التاريخ والسياسة والوطنية والاجتماع، أو طاقة مزهرة تجمع تلك الأفانين المختلفة. وبراعة الكاتب تتجلّى في تأليف هذا المزاج، وتنسيق تلك الطاقة. فهيهات أن يلمح القارئ، في أطواء القصة حديثا لا يستدعيه الموقف ، أو موقفا ينبو عن السياق، أو إغراقا في وصف وتصوير تتجافى به القصة عن سبيل التأثير والإقناع.

ما أكثر ما كتب الغربيون عن الأمم الشرقية والإسلامية بلغات الغرب، ولكن ما كتبوه لا يصوّر نفسية هذه الأمم وعقليتها حق تصويـــرها، ولا
يستوفي حقائقها كما هي عليه، وذلك لأن أولئك الكتّاب إما أن تحدوهم نِيَّة سيئة ونزعة مغرضة ، وإما أن يقعد بهم عجز عن التحقيق وصدق التصوير.

وإذا فقد أحسن صاحب " إدريس " صنعا، إذ كتب قصته بلغة غربية، سدّا لذلك النقص، وإطلاعا لقراء الغرب على حقائق أمة إسلامية فتية تنشد سلامة وكرامة.

و ما أجمله توفيقا أن تكون تلك اللغة الغربية التي كتبت بها القصة هي اللغة الفرنسية. فالقصة ليست إلا صفحة من اضطهاد المستعمر الفرنسي. فمن الخير أن يقرا ها الفرنسيون بلغتهم ، دانية المنال، حتى يتبيّن لهم : كيف يُؤدّون في بلاد المغرب رسالة الحرّية والسلام.

محمود تيمور

القاهرة ، الرسالة ، 29 جويلية 1948